الأبعاد الإيديولوجية في رواية "الحب في زمن العولمة"للروائي صبحي الفحماوي

Ideological Dimensions in "Love in the Time of Globalization": A Novel By Subhi Fahmawi

د. أروى محمد ربيع
أستاذة مشاركة في جامعة جرش
كلية الآداب - قسم اللغة العربية وآدابها
dr.arwarabee@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2020/01/29	تاريخ القبول: 2020/03/10	تاريخ النشر: 2020/06/20

الملخص:
هل يمكن للناقد الايديولوجي أن يوجه النص الروائي في لحظة ما ؟ وهل هناك وظيفة للأدب في المجتمع ؟
إذا كانت الإيديولوجيا تعني نسقاً من الأفكار والنظريات السياسية والحقوقية والدينية والأخلاقية والجمالية والفلسفية بحسب تعريفات الموسوعات، فهل يمكن للأديب وما ينتجه من أدب أن يكون صورة إيديولوجية في أثره ودوره في توجيه النص المنتج ؟
هذه الأسئلة وغيرها تبقى مثالاً للجدل، ولكن وجود السؤال يعني وجود إجابة من نوع ما، فالإجابة تشير إلى دور الأديب من ناحية، ووظيفة الأدب في المجتمع من ناحية أخرى، ومن هنا فإن إيديولوجيا الكاتب تؤثر في رؤيته للأدب ودوره ووظيفته وتنعكس على العمل الأدبي موضوعاً ومضموناً وبناءً.
وهذا ما ستركز عليه هذه الدراسة .
كلمات مفتاحية: الرواية الأردنية، صبحي فحماوي، الرواية والإيديولوجيا، النقد الإيديولوجي

Abstract
Can the ideological critic direct the narrative at a certain point? Is there a function of literature in society?
If ideology means a pattern of ideas, and philosophical theories: political, legal, religious, moral, aesthetic according to the encyclopedic definitions, can the author and what he produces of literature be an ideological picture in its effect and role in directing the produced text?

These questions and others remain examples of critical controversy, but laying down the question means the existence of an answer of some kind, the answer refers to the role of the author on the one hand, and the function of literature in society on the other hand, and hence the ideology of the writer affect his vision in the literature and its role and function and reflected upon the literary work as a subject, content and construction.This will be the focus of this study.
Keywords: Jordanian novel, SobhiFahmawi, the novel and ideology, ideological criticism.

إذا كانت الإيديولوجية * تمثل جزءاً من الوعي الاجتماعي تُحدّدُ بظروف حياة المجتمع المادية، والفكرية، وتعكس العلاقات الاجتماعية بهذا المفهوم المؤطر لصورة الإيديولوجية ،فتصبح هذه الصور غلافا ثقافياً للشخص أينما حلَ، أو ارتحل، من هنا، فكل ما يمكن أن يعيشه الانسان أو يتعايش معه يخرج من ورحم الإيديولوجية الذي يشكله ويمنحه خصوصية الرؤيا، ولعل في هذا إجابة عن التساؤل : هل يمكن للأديب أو ما ينتجه من أدب أن يكون صورة للإيديولوجية ....؟

يبدو من مقولات كبار الأدباء أن الميل يتجه نحو توكيد الإيديولوجية في الأدب، ولعل هذا ما جعل جان بول سارتر يصف المبدع بأنه في حالة من الالتزام، وعليه فإن " الإيديولوجية مغروسة في الممارسات الدالة في الخطابات والأساطير والتمثيل وإعادة تمثيل الأشياء كما هي فهي مفروسة في اللغة".[1-]

هذه الأسئلة وغيرها حاولت هذه الدراسة أن تجيب عليها من خلال النهوض بفكرة الإيديولوجية في الرواية العربية، متخذه من رواية الأديب الأردني صبحي الفحماوي (الحب في زمن العولمة) نموذجاً لذلك .

وقبل الحديث عن علاقة البعد الايديولوجي في النصوص الأدبية، لابد من تقديم مفهوم عام للإيديولوجية، ليتبين للمتلقي مدى العلاقات التي يمكن أن تتسل إلى داخل النص وتصبح مكوناً من مكوناته .

فالإيديولوجية مصطلح تاريخي حديث نسبياً، يعود في التأصيل الى الفكر السياسي الفرنسي الذي أثّر في المنتجات الفكرية على سائر أنحاء أوروبا ، وظهر هذا التأثير في العالم العربي فكرياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً أيضاً فالإيديولوجية

هي " علم الأفكار تزعمها الفيلسوف انطوان وستون دي ترلسي "[2] أصبحت تطلق الآن على علم الاجتماع السياسي تحديداً، ومفهوم الإيديولوجية مفهوم متعدد الاستخدامات والتعريفات، فهو يعتبر نسقاً من المعتقدات والمفاهيم يسعى الى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة، من خلال منطق يوجه ويبسط الاختيارات السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات، وهي من منظور آخر نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والأساطير والحِكَم التي تؤمن بها جماعة معينة، أو مجتمع ما، وتعكس مصالحها واهتماماتهاالاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية، وتبررها في الوقت نفسه .

فالإيديولوجية هي منظومة من الأفكار المرتبطة اجتماعياً بمجموعة اقتصادية أو سياسية أو عرقية، منظومة تعبر عن المصالح الواعية لهذه المجموعة على شكل نزعة مضادة للتاريخ، ومقاومة للتغير، ومفككة للبنيات الكلية [3]. وعليه فإن الإيديولوجية تقوم بدور الوسيط لأنها نسق رمزي يستخدم كنموذج لأصناف أخرى : اجتماعية ونفسية ورمزية، قد تشوه الواقع أو تخطئه لكنه تشويه يعكس حقائق معينة ويطمس أخرى لتوصيل رسالة معينة، فالإيديولوجية في الأدب تبحث عن علاقة مضمون العمل الأدبي بشرط إنتاجه الاجتماعي، أو بالدلالات التي يحملها، ومدى إحالتها على وعي صاحبها، من خلال وعي الجماعة التي ينتمي اليها، فهي تظهر في الموقف أو شكل التعبير فقط، بل تتجسد في المواضيع التي يختارون الكتابة فيها، ليتمكنوا من إرسال الرسالة التي يريدونها لتمثل الوعي الممكن الذي يحرك فكر الجماعة ويرسم مستقبلها، وتتمثل في رؤية الأديب للعالم التي يضمرها كل نص أدبي [4].

وأبعد من ذلك فإن ميخائيل باختين أشار إلى أن الإيديولوجية تظهر في طريقة استعمال اللغة، وفي تبني منهج معين في الكتابة، وهذا ما يجعل أي عمل أدبي أو نقدي لا يخلو من الإيديولوجية، فهي ترتبط بوجهة النظر التي يتضمنها العمل الأدبي، وتعكس الرؤية الفنية والجمالية التي ينطلق منها الناقد أو الأديب، فاللغة هي المظهر الأصل للإيديولوجية، إيديولوجية الفرد، وإيديولوجية المجتمع، " فالكلمة – كما يقول باختين – هي الظاهرة الإيديولوجية الأمثل " [5] .

أمّا كمال أبو ديب فقد عبر عن الإيديولوجية بقوله: " هي البنية (النظرية) المتشكلة لدى مجموعة بشرية في المجتمع، نتيجة تراكم مقالات ماضوية الطابع تتعلق بالتنظيم الاجتماعي في أبعاده السياسية والاقتصادية والثقافية التي نشأت في زمن ومكان آخرين، والتي تسعى هذه المجموعة إلى فرضها على الواقع الراهن، وصياغة الواقع الراهن تبعاً لها وفي اطارها "[6].

بعد هذا العرض البسيط نخلص بالقول بأن هناك علاقة بين الأدب والإيديولوجية، علاقة مُوحية، وملهمة وذات معنى عميق، فالأدب لا يمكن اختزاله إلى ما هو مجرد إيديولوجية، له علاقة بالإيديولوجية لكنه ليس مجرد انعكاس لها، إن الإيديولوجية تدلنا على الطرائق الخيالية التي يختبر الناس بوساطتها العالم الواقعي، وهذا بالضبط ما يفعله الأدب حيث يشعرنا بأننا نعيش ظروفاً معينة بدلاً من أن يقدم لنا تحليلاً مفهومياً لهذه الظروف .

فالأدب عالق بشبكة الإيديولوجية التي تتطلب منا تحليلاً دقيقاً لفهم العلاقات والثيمات داخل النص الأدبي، لأن النص نسيج من المعاني والإدراكات والاستجابات الملازمة له في انتاجه التخييلي للواقع، وهذه هي الإيديولوجية في المقام الأول .

رواية " الحب في زمن العولمة " أنموذجاً

تأتي رواية " الحب في زمن العولمة " لتمثل جانباً من جوانب الخطاب الروائي العربي بعامة، والخطاب الروائي الأردني بشكل خاص لتركز على العولمة والصراع من أجل الثروة والمال بغض النظر عن الطريقة، وذلك في ثنائية ايديولوجية تمثل صورة المواجهة بين الرفض والقبول، وهذا النمط الحداثوي الجديد الذي ظهر في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحادي والعشرين لا يتمثل في رواية الفحماوي بل في روايات عربية اخرى سلطت الضوء على كثير من الصراعات مظهرة الإيديولوجية القائمة على الرفض والقبول .

وهنا يكتشف الباحث في الرواية العربية الخلخلة الكبيرة التي حدثت في منظومة القيم والأفكار السائدة، فأخرجتها من الشكل التقليدي، إلى الشكل

الروائي الجديد بعناصره وبنائه وتفاعلاته الذاتية والموضوعية[7]. إذ تميزت الرواية الحداثوية أحياناً بالتفكك والتبعثر نتيجة لتبعثر الواقع وتشتته. فعندما تتشظى الأبنية المجتمعية، ويفقد الإنسان وحدته مع ذاته، لابدَّ من الاستناد إلى جماليات التفكك، بدلاً من جماليات الوحدة والتناغم، وتفجير منطق الحبكة القائمة على التسلسل والترابط أو السير في خط واحد منذ البداية الى الذروة والنهاية .

وعليه فإن مصطلح الرواية الجديدة يحوي داخله كل ما هو جديد ويحوي كثيراً من الصفات المتعارضة، والألوان المتباينة، ليتلاءم مع التغيرات المستمرة والسريعة التي يشهدها العالم بأسره على جميع المستويات الفكرية والاجتماعية والسياسية، فالأدب ما هو الا انعكاس للواقع .

نجح الفحماوي في روايته " الحب في زمن العولمة " بالتمرد على الأطروحات الكلاسكية القديمة، فضلاً على ظهور مضامين روائية جديدة، إذ عمد إلى إبراز دور العولمة في تغيير الواقع، فجاءت الرواية التي تدور أحداثها حول عدة مواضيع أبرزها : الصراع الطبقي بين شخصيات الرواية لإدراج المجتمع العربي في مسيرة التنافس الحضاري العالمي بغض النظر عما يترتب عن ذلك من نتائج سلبية، وكذلك موضوع الذات والآخر إذ وقف المبدع في روايته على كثير من العلاقات التبادلية القائمة على التأثر والتأثير ولا يمكن أن ننسى الاعتداء على الذات الأقل حظاً في المجتمع وغيرها من الأمور التي سنتحدث عنها لاحقاً .

ويجدر بنا هنا أن نؤكد أن الفحماوي اعتمد على المرجعية الثقافية والفكرية والإيديولوجية في بناء نصه ومركزاً على الروائي الحداثي موظفاً الرمزية والسخرية ومركزاً على تناحر الإيديولوجيات على السلطات السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، لإبراز الصراع القائم في المجتمع ، ولتحقيق ذلك فقد رصدت هذه الرواية الواقعة في 221 صفحة، والصادرة عام 2006 م التغيرات التي طرأت على الواقع العربي من خلال مدينة عربية غير محددة أطلق عليها المؤلف اسم " مدينة العولمة " بقوله : " مدينة العولمة هذه ليست في مصر أو سوريا، أو الأردن أو فلسطين، أو العراق أو المغرب العربي، أو بلاد الجزيرة العربية، ولا حتى في الصومال أو جيبوتي، بل هي واقعة داخل الحدود المشتركة لهذه الدول، في مساحة

مستباحة، فتمَّ الاختلاف عليها بين العُربان ؛ الأعراب العاربة، والأعراب المستعربة لذلك كانت المنطقة تخيليَّة ... وقيل إنهما تناسياها عمداً، ليتركا للعرب أرضاً يختلفون عليها ...."[8]. وكان اسمها سابقاً " البطين " وهي عبارة عن بيوت طينية، وأخرى حجرية، طرقاتها ترابية، تتفجر في منخفضاتها الينابيع .....

وبما أنها مدينة محايدة اختاروها لتكون نموذجاً لمدينة العولمة ليصوروا من خلالها التغيرات التي لحقت بالحياة الاجتماعية والانسانية والاقتصادية، فهي المسرح والمكان الذي تتحرك فيه شخصيات الرواية، وأحداثها.

لم يختر صبحي الفحماوي هذا العنوان " الحب في زمن العولمة " عفو الخاطر، بل عن قصدية واضحة وهو بهذا يتفق مع ما قاله لطيف زيتوني في معجمه بأن " العنوان يحتاج الى نظر وتدقيق، فهو يعبر عن الوجه المتقطع المبعثر للواقع العام ،ويدل على الشخصيات والأماكن والأساليب السردية، فالعنوان يختصر سلفاً مغامرة الرواية، ويعرض طريقة للنظر اليها. كما تنصب دراسة العنوان على قيمته الصوتية والدلالية والتصويرية وعلى علاقاته بالقارئ، كيف يتلَقاه ؟ كيف يتصرف به ؟ كيف يحلله ؟ كيف يغري القارئ بقراءته ؟ " [9].

فالعنوان له أهمية في فك مغاليق النص ومسالكه، كما يقدَم طرقاً لفتح آفاق الحوار، فالفحماوي نجح من خلال عنوانه لفتح رؤية جديدة لعالم العولمة وما يكتنفه من أحداث وزعها بشكل عشوائي في ثنايا النص الروئي.

لذا عمد المبدع في بنائه السردي على اعتماد أسلوب السرد المتشظى، فالأحداث لم تأتِ متسلسة في خط واحد من البداية إلى النهاية، بل جاءت أحداث الرواية مقسَمة بناءً على العناوين الفرعية، الى خمسةٍ وخمسين عنواناً اشتملت على أسماء شخصيات، وأسماء أماكن، واعلانات، ومواضيع مختلفة من مواضيع الرواية.ليُظهر من خلال هذه العناوين العلاقات الانسانية، وكيف تطورت، وأحدثت تغيراً في الحياة الاجتماعية القديمة الى عالم جديد تسير فيه الأحداث، وتتحرك من خلاله الشخصيات بين المدينة القديمة، ومدينة العولمة الحديثة، مع رصد التغيرات

الهائلة في الزمان والمكان و أساليب الحياة المتطورة من جميع الجوانب الاقتصادية والسياسية والأدارية والتجارية .

فتعدد العناوين الفرعية في رواية " الحب في زمن العولمة " لم يأتِ عبثاً، بل كان هدفه كسر النمط السردي المتتابع وتشتيته وتقطيعه، أو تفكيك وحدته، وتفكيك بنائه التصاعدي، وكأن الفحماوي يعكس ما وصل إليه التجريب من التمرد على المعايير التقليدية في العنونة والقص والسرد معاً، محاولة منه لتجسيد تجربة اللامعقول[10]. ولا يكتفي الفحماوي بالتعبير عن حالة التشظي التي يعيشها بالعنوان الرئيسي في بداية الرواية، بل أكدّ هذه الحالة بالعناوين الفرعية، ووظف العديد من التقنيات السردية الأخرى لإبرازها .

بدأ تعدد العناوين الداخلية واضحاً في الرواية منذ البداية، انفصل أحياناً السرد فيها عن السرد السابق أو اللاحق، واستمر السرد بين التوقف والاستمرار إلى نهاية الرواية لتأكيد مصير الإنسان، فالإنسان مهما حقق فمصيره الموت والفناء.والحب في زمن العولمة ما هو إلاّ حب قائم على المصلحة .

تدور أحداث الرواية حول شخصية سائد الشواوي ضمن عنصري "الزمان والمكان " في مجموعة من العلاقات التي تطورت وطورت شخصية الشواوي، الذي نشأ في رعاية والده العجوز الشاذ جنسياً كما يصفه الراوي، والذي يبيع بعض عقاره لينفق على متطلباته ومصالحه، إذ كان على علاقة وطيدة بمدير شرطة البطين الضابط أبو سعفان الذي يسهل له كثير من الأمور مقابل مصالح مشتركة بينهما .

ومن خلال علاقات والده تمكن من تعينه مراسلاً في البلدية بشهادة السادس الابتدائي، ثم واصل تعليمه وحصل على شهادة الثانوية بعد عدة محاولات، فتحول إلى مساح معتمد في البلدية، ومن هنا بدأ نشاطه بتحيّن الفرص لشراء الأراضي بأقل الأسعار، وخاصة المتنازع عليها، قائلاً :" أريد أن أكون تاجراً حراً.وبصفتي مسَاحاً مرخصاً، فأقرب شيء إلى قلبي هو الأراضي ..... تجارة الأراضي" ... وأنا أول شخص في مدينة العولمة انتبه إلى تجارة الأراضي [11].

وفي الوقت نفسه كان يمتلك محلاً تجارياً صغيراً يتاجر به من المواد التي تأتيه على شكل هدايا تقدم له من المراجعين في البلدية، فكان يقوم بإقراض أهل البطين من دكانه ويسجل الديون في دفتر، وعندما يتقاضاها فإنه يتقاضاها أضعافاً مضاعفة، وذلك لأنه يدون في الدفتر أضعاف الدين، وإذا لم يتمكنوا من السداد فإنه يقوم بالاستيلاء على محاصيلهم الزراعية .

بقي على هذا الحال إلى أن تغير رئيس البلدية، مما أدى إلى كشف فساده، وإبعاده عن مكان عمله دون فضائح، ولكن لم يؤثر هذا على نشاطه، بل ازدادت نشاطاته الاقتصادية واتسعت وأصبحت له محلات الشواوي للاستيراد والتصدير، واستطاع بعد ذلك أن يحصل على الشهادة الجامعية في تخصص إدارة الأعمال، ويكوّن ثروة كبيرة.وبحكم تجارته وأمواله أصبح عميلاً لدى بنك التجارة العالمي وهناك ساعدته السيدة تغريد مديرة الفرع بالارتباط بابنة حمد الله الكفري رئيس مجلس ادارة البنك، بقولها له "تزوج، فإن في الزواج بركه ! الزواج يعطيك الاستقرار والسعادة، ويزيد حركته التجارية " وعرّفته على الموظفة الجديدة، الجميلة ابنة حمد الله الكفري وقالت له " بأنك بذلك سوف تكون من الواصلين ! وستضم كفاءاتك التجارية إلى صلاحياته البنكية " 12.

أُعجب بذلك وقال لنفسه : " حُمَى الحب ! سمّهِ الحبَ، سمّهِ المستقبل، سمّهِ التخطيط ..... كل العالم العولمي اليوم يعمل بالتخطيط " [13]. اشترى لها شقه في أجمل موقع في غابة الأرز، وأقاما حفلاً كبيراً في فندق الكونتنتال، جمع فيه أكابر أهل المدينة، وذوي الجاه، ورجال الأعمال، وأنجبت منه سفيان وثريا.وعليه فقد وضع والدها تحت تصرّفه رأسمال لا حدود له، لتأسيس فروع تجارية في الأقاليم .

استمر الشواوي في تطوير تجارته وعلاقاته الخارجية، وعين مستشاراً مالياً له اسمه سامارو، هندي يدير محفظة بنكية من نيودلهي، تعاقد معه مقابل نسبة من الأرباح المالية، أمَا المستشار الماليزي الذي أراد استقطابه لم يتفق معه لأنه لا يتناسب مع نظام العولمة، فاتجه إلى مركز التجارة العالمي في نيويورك وتعاقد مع رالف وود كمستشار مالي له ليضاعف أرباح الشركة، ويحقق صفة دولية على نشاطاته الصناعية والتجارية، وأسواق المالية، وعقاراته المتنامية.وافق وود الذهاب

الى الشرق الأوسط وقال :" لقد قرأت كثيراً عن الشرق ! إنها بلاد عبق التاريخ يا سائد ! إننا نحن الأمريكان المولودين من شجرة مقطوعة، نشعر أننا أقزام أمام التاريخ العريق الذي تدّخره بلادكم "[14] ولكن كانت زيارة مشروطة لا تتجاوز الأسبوع الواحد، مقابل مبلغ خمسين ألف دولار، ولتحقيق الأرباح عمل على تخفيض نفقات الشركة، وتركيب أجهزة الكمبيوتر لتحلِ محل العاملين، وطالب بإنهاء خدمات نصف العمال، وتطوير استخدام التكنولوجيا، كأجهزة الانذار ومضاعفة ساعات العمل ..... وغيرها من الشروط .

وذلك لأن المجتمعات الانسانية تعتمد في تطورها على الثقافة والمعرفة، لذا فالثقافة خرجت من دائرة مجموعة العادات والتقاليد لتتصل بكل جوانب التطور التكنولوجي لوسائل الاتصال، وانتشار نظم المعلوماتية لاشباع الحاجات الانسانية ومواكبة العلم والمعرفة، وهذا ما جعل العالم قرية صغيرة، يعتمد على الصوت والصورة، ليؤثر ويتأثر بالآخر عن طريق وسائل الاعلام المتطورة .

وهنا أبدع الروائي في التقصي والاكتشاف وتصوير الواقع الروائي بكسر النمط المألوف، فلم يتبنى نسقاً واحداً، بل اعتمد على أساليب جمالية خاصة في تشكيل بناء الرواية، من خلال توظيف تقنيات سردية، إذ بدأ الرواية بعنوان فرعي (تنويه) نفي من سطره الأول وجود مظاهر التكنولوجية ووسائل الاتصال،وأهمها التلفازفي مدينة (البطين) القديمة .

وفي المشهد الثاني المعنون ب (أشباح وأرواح) استخدم الروائي عدة تقنيات أولها تقنية الاستباق " وهو مخالفة لسير زمن السرد، وذكر حدث لم يحنْ وقته بعد، وهذا يؤدي اختلاط الأدوار وتداخلها وبالتالي تداخل أزمانها فيمتد داخل زمن السرد إلى الخاتمة (وهو ما يسمى بالاستباق الداخلي) [15] الذي أخذ شكل الحلم والهلوسة، فسائد الشواوي "الذي بنى قصره على الرابية الغربية من مدينة العولمة، لينعم بالهدوء بعد أن أقنعته زوجته بأن في البعد عن الناس هدوءاً، وراحة لأعصابه المنهكة، .... ترسخ الخوف في قلبه ليطرد الشرور والأحاسيس السوداوية جراء التقرير الذي قدَمه الدكتور الألماني " فريد ريشى " عن حالته الصحية، نقص المناعة " الايدز " ...[16].

وهنا يوظف المبدع أسلوب آخر في هذا المشهد وهو طرح العديد من الأسئلة ليسلط الضوء على التناقضات مثل: - هل نجح العلم في تطوير الحياة، فتغلبت عليه أمراض العصر بتحقيق الموت ؟

هل حققت الحياة للعالم كل هذع الصناعات والتجارة والطب والهندسة، والعلوم والفنون، فأتت الآخرة لهم بتلوث البيئة وثقب الأوزون لتدمَر الأرض وما عليها ؟

هل انتشر الإعلام والمعلومات والتكنولوجيا للجميع، فقابلها الموت بأمراض الإيدز ؟

هل حلَت لعنة العذاب على الكرة الأرضية، عندما صارت قرية صغيرة، وفسق فيها مترفوها ؟ وهنا نشعر بنوع من الاقتباس الديني الموظف بطريقة ذكية.

والعديد العديد من الأسئلة المؤثرة جداً في بناء الرواية، كونها ترصد الصراع الذي يكتنف مدينة العولمة وتوحَش رؤوس الأموال العالمي، والذي يجلب الفساد والخراب على الأوطان التي تناضل للحفاظ على صفاتها الأصلية .

فهذه العناوين الفرعية تمثل مفاتيح ومشاهد للانتقال بالأحداث بطريقة غير منسجمة أو متسلسلة تسير بطريقة متشظية لتضع الذات المؤدلجة أمام الآخر، وأمام نفسها، ويتأجج الصراع من الداخل بحثاً عن صورة من صور التوافق بواسطة الخطاب الذي لا يقول " الحقيقة كما هي في ذاتها،لأن الحقيقة في اللغة ليست حقيقة بل متغيرة بوجود متغيرات، وباختلاف زوايا النظر، ومواقع المتكلم تبعاً لاختلاف موازين القوى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فاللغة مسكن الكائن"[17].

وبما أن الإيديولوجية ،" نظام القيم والمعارف المهنية على أفراد مجموعة اجتماعية محددة، إنها الأوهام والأفكار التي يضعونها لوجودهم الواقعي، وينقلونها باستعمال اللسان، فيكون اللسان أو اللغة " مسكوناً" مسبقاً ،قد لُقّحَ بالإيديولوجية، لأنها توصل الدلالة"[18]. فاللغة هي المظهر الأصل للإيديولوجية، وهذا ما عمد إليه الروائي من خلال شخصية الشواوي الذي يعمد إلى الاعتماد على اللغة بهدف الإقناع

عبر تبرير الشيء وضده، فهو قادر على الدفاع عن موقفه ورأيه في حال الصواب والخطأ، في الحقيقة والزيف .

فاللغة ترتبط بشخصية العمل الأدبي، فلكل شخصية لغتها الخاصة التي تكشف عن أفكارها وطموحاتها، وتتغير بتغيرها وتتطور بتطورها فتظهر الشخصية الروائية المتعددة العلاقات، ومن هنا يصبح الاهتمام باللغة لا يوصفها لغة تواصل ؛ بل لغة تكشف وعي الروائي بتوظيفها وابراز التطورات والتحولات الفكرية والإيديولوجية المتسارعة، التي عاشتها الشخصيات، وعبرت عنها من خلال مستويات الكلام وخاصة الخطاب الواقعي الذي يتناسب مع واقع العولمة، فبظهور مدينة العولمة انهارت كثير من المبادئ، وأصبحت شخصيات هذه المدينة تتفنن في تنميق الكلام، إذ تعمل على تزيين القبيح وتقبيح الجميل، من خلال التلاعب باللغة والفكر، فساد منطق القوة وصراع المصالح والأهواء، فتغيرت موازين القوى ومثال ذلك ظهر في مشهد (أشخاص آخرون) حين قامت مظاهرات شعبية حاشدة في معظم الأقطار العربية، نصرة للفلسطينيين والعراقيين والمقاومين للاحتلال الأمريكي الآسر لبلديهما، فاستغل الشواوي الوضع وأوعز لميادة (مديرة مكتبة الاعلامي المختص بالترويج وتحسين الصورة التجارية لشركات الشواوي) بأن تُسيّر شاحنتين من الأدوية للمصابين هناك وتجعل الخبر يصدر من وسائل الإعلام، على انه خبر بريء ليس له علاقة بالدعاية، وهدفها هو تحسين الصورة، تلميع الصورة، تكبير الصورة ..... فتزداد شهرته، وتنخفض كراهية الناس له فيحقق بذلك توازناً على مركب استثماراته [19].

وكأن مدينة العولمة تعتمد في ثقافتها على الصوت والصورة بهدف التأثير في الأفراد والجماعات، وتوجيه الرأي العام نحو الإعلام والدعاية إذاً نجح الفحماوي في بناء شخصيات روايته من خلال الخطاب الروائي، إذ وظف اللغة البسيطة المحكية التي تتناسب مع كل المستويات الحياتية وتعني بأدق التفاصيل – التي يمكننا في بعض الأحيان الاستغناء عن الكثير منها – للوصول للمعنى المراد من الخطاب، لأن نوع اللغة والخطاب المنتج ما هو إلَا " رسالة ينتجها المبدع، ويتوجه بها نحو المتلقى " [20] واللغة كما يقول رولان بارتِ " توجيه واخضاع معمّمان " [21]. فمصير

الانسان ووجوده اللغوي رهين بأفق الفكرة التي تتحكم به، والمحيط الذي يعيش فيه .

كثير من شخصيات رواية " الحب في زمن العولمة " تحمل رموزاً وتمثل شرائحاً متنوعة تقوم على المنفعة، فالصداقة من أجل المصلحة، وتسهيل الأعمال وحب المال فسميرة زوجة المدير العام للبنك المركزي، رفيقة أسمهان زوجة الشواوي ساعدت في جعل الشواوي عضواً إدارياً في البنك المركزي برأس مال، عمل من خلال منصبه على تشريع حرية تحويل العملات المحلية والأجنبية من وإلى الولاية دون قيود، وذلك هرباً من الضرائبالعالية، ومساهمة في تسهيل عملية غسيل الأموال في مشاريع استثمارية محلية كشركة العمارة العولمية، وشركة اللحوم المعولمة، وشركة استراتيجية عابرة للقارات التي تتاجر بالمشاريع السياحية والعقارات.ومركزها في البحر الكاريبي، والشركة الوهمية المسماة بمدينة (دزني لرفاهية شعوب الشرق الأوسط والعالم) فتبرز صورة المرأة الصديقة سميرة زوجة المدير العام للبنك المركزي بعلاقتها بأسمهان زوجة الشواوي، بأنها صورة تقوم على المنفعة ويظهر ذلك عندما تقدم سميرة نصيحة لأسمهان بتغيير البيت فتتقاضى عمولة من المالك للمشروع السكني فتقول :" صحيح أنها صديقتي ولكن العملية، عملية بزنس " [22] فالصداقة مجرد مصلحة .

وكأن الفحماوي أراد من خلال مواقف شخصيات روايته المتعددة أن يبرز موقف الإنسان بعامة من أزمة الواقع الذي يعيشهُ، فمعظم الشخصيات تتحرك لتحقق المطمع المادي في مدينة العولمة، وكأن العولمة بكل تفاصيلها أصبحت قدر هذه الأمة، باستثناء بعض الشخصيات التي ما زالت متمسكة بمبادئها والرافضة لهذه العولمة كشخصية مهران.مهران شخصية مقهورة أمام الاكتساح الهائل للعولمة وأدواتها، فهو أستاذ يحمل شهادة الماجستير في علم النفس عينه الشواوي لإعطاء دروس خصوصية لابنته ثريا لتتعلم كيف تفهم الزبائن ؟ وكيف تتعامل معهم ؟ وتقنعهم بوجهة نظرها، لصالح خدمة البنك الذي ستعمل فيه .

كان مهران يعلّم ثريا، ولكنه يمزج مادة الدرس مع حديث الناس في المجتمع، ليشحن أفكارها الاجتماعية، ويناقشها ويسمع وجهة نظرها بالرغم من

التباين الطبقي، فهي ابنة الطبقة البرجوازية العالية، ولكنها ظهرت متأثرة بحديث أستاذها، لا بل منبهرة به أحياناً ... " يقول لها مستغرباً : أنتِ تعيشين حياة غنى مفرط، وتنطقين باسم الجياع، والمحرومين ... ! فتقول له مؤكدة : أنا لا أحب الظلم، ولا نهب حقوق الآخرين، سواء بالتحايز أو بالقوة ! انتبه أنه خرج عن الدرس فاستأذن وخرج .[23]

الأستاذ مهران يمثل شخصية المثقف الواعي الذي يتحدث عن سوء الخصصة في كثير من المصانع العربية كمصنع الأسمنت في الأردن حين قال : " شلّحنا الغرب، حتى تراب بلادنا ...."[24] وعن جامعة الدول العربية ومؤتمراتها التي اعتبرها " جعجعة بلا طحن " وكأنه يعمد إلى السخرية والتهكم من الأوضاع السياسية السائدة في الوطن العربي رغماً عن العرب، وقوله في موضع آخر من الرواية " نشعر يا ثريا أن هناك من يبرمج لتدمير حياتنا .

وظهرت ثقافته المتنوعة حين تحدّث مع ثريا عن الحدائق الفرنسية والعمارة [25] المأخوذة من العمارة العربية الأندلسية ! "لقد أخذوا فنوننا وعلوم حدائقنا وحضارة عمارتنا الأندلسية، ثم قتلوا الأندلس، ومن أقام الحضارة فيها!" فهم كما يقول المثل :" أكلو خيرنا، وانتخبوا غيرنا " [26] استمر في الحديث عن العولمة المتوحشة، وهجمتها الطاحنة على العرب لتخفي ما تبقى من آثار حضارتها، فقالت له ثريا : " أنت شخص ثوري ،ولست فيلسوف فقط ! " فاعترض مهران بقوله : " لست ثورياً، بل قولي أنني إنسان واقعي " .

بدأت ثريا ابنة الشواوي تعشق أفكار مهران وشخصيته الجادة، التي تختلف عن أفكار أبناء طبقتها البرجوازية، إذ كانت تريد رجلاً يحترم عقلها أولاً، ثم جسدها ثانياً، فهي لا تريد صبياً يلعب بجسدها حتى يملّه، ثم يضل طريقه باحثاً عن غيرها.فهي ترفض (الحب في زمن العولمة)! وهي تعلم أن والدها الشواوي ووالدتها لا يرضيان بزواجها منه ؛ لأنهما لا يؤمنان بالزواج بين الطبقتين المختلفتين.

وكذلك شخصية منذر شلبح صديق مهران المتمرد على مدينة العولمة وما فيها من فساد، فهما يجلسان كالمعتاد في مطعم (أبو الشوارب) يشربان الشاي،

ويتبادلان أطراف الحديث حول مدينة العولمة، وما يعمها من خراب، فالدكاكين الصغيرة قد أفلست بسبب هجوم مخازن التموين العملاقة ! إذ يستوردون كميات كبيرة من المواد الغذائية، بمواصفات ضعيفة أو معدومة ! و يعملون على إعادة التعبئة، وتغير تاريخ الصلاحية، ثم يصدرونها للدول النامية ويحققون أرباح باهظة .

كما يتحدثان عن الضرائب الباهضة التي فرضت على عامة الشعب بالرغم من سوء الخدمات كالشوارع المهترئة، والنظافة المنعدمة، والتأمينات الصحية والاجتماعية، فمدينة العومة أصبحت تقبض ولا تدفع .

مدينة العولمة التي تحولت الكثير من محلات البقالة الصغيرة فيها إلى نوادٍ ليلية لممارسة كل شيء مباح، تحت باب الحرية الشخصية ! وهنا يلاحظ المتلقي الواعي السخرية المريرة المنتشرة في كثير من هذه التفاصيل الاجتماعية والاقتصادية والفكرية السائدة في مدينة العولمة والمليئة بالفوضى العارمة .

تركز الرواية على صورة النساء الثريات، اللواتي يعملن في مجال المال والأعمال والشركات، فشخصية رهام، شخصيّة فعالة، مساندة للرجال العولميين، دخلت معهم في شراكات عديدة، بدأت عملها كسكرتيرة في رعاية " أموال الأيتام "، ثم سكرتيرة تنفيذية في مشروع عقاري استثماري سياحي اقتصادي يترأسه " ريتشارد نيكلسون " الذي قال لها : " التجارة يا رهام عالم لا يرحم "! والمطلوب منك أن تكوني مستودعاً عميقاً لأسرار المهنة، وأسرار مديرك في العمل، فوافقت وقامت بعملها كما يجب، إذ جهزت فريقاً من الشباب ليسوقوا للمشروع بعمولة أي دون رواتب، وبعد بيع المشروع كاملاً، احتسبت النفقات وضبطت الأرباح بين ريتشارد والشواوي، وقدّم ريتشارد لرهام مبلغاً مدهشاً لم تحلم به، وانتهى المشروع.ولكن لم تنتهِ علاقة رهام بريتشارد إذ اتصلت به، فرحّب بها ودعاها لزيارته في الكاريبي، هذا هو المشهد الأخير من الرواية عنونه الفحماوي ب " ألف ليلة وليلة"!

قضت فيه رهام أسبوعاً ممتعاً مع ريتشارد وعرّفها على ديفيد فريدمان بصفته أحد معاونيه وأتباعه، وقال لها إن أعجبك فسوف يكون مساعدك في مدينة

العولمة ! "قضت معه أسبوعاً من ألف ليلة وليلة، لكنه في الحقيقة كان يحلم أكثر بالدولارات " [27] التي سيحصل عليها نتيجة عمله معها كما أبلغه ريتشارد .

عادا معاً وسجل فريدمان شركة عابرة للقارات تحت اسم (المركز العولمي للهجرة، وتشغيل الشباب الحر).استأجرت رهام شقة تجارية لاستقبال الشباب الباحثين عن الهجرة بهدف العمل، ونشرت الاعلانات في الصحف ووسائل الاعلام للتسويق لهذه الشركة، التي تتقاضى (250) دولار عن كل عقد، وكان صافي الأرباح ثلاثة ملايين دولار تقريباً .

وطمعاً بالأرباح مددوا المدة، فبدأ المراجعون يتذمرون الى أن اكتشف أحدهم أن هذه السكرتيرة نفسها قامت بالنصب على والده.فأثار بلبلة بين المراجعين، وقدّم شكوى الى مكتب العمل، وعندما لم يجد جدوى قرر أن ينتقم، بقوله: ما دامت هناك حرية للشركات ! لماذا لا تكون حرية للأفراد ؟

فقذف البنزين داخل المكتب وأشعل النار بعد أن تأكد من وجود رهام ومديرها ديفيد معاً داخل غرفته الإدارية، فتفحما وكانت نهاية مؤلمة .

الخلاصة :

استطاع الفحماوي من خلال شخوص روايته المأزومة، التي تسكنها هواجس العولمة، وتسيطر عليها تبعات الواقع، أن تخرج من تتابع السرد وقيود الواقع لتظهر الآثار النفسية السيئة الناتجة عن العولمة .

فمدينة العولمة في النهاية لم تكن سوى نقمة على من تبناها، فالشواوي مصاب بالإيدز، ورهام وديفيد تفحما من أثر الحريق، وكأن المبدع أراد أن يؤكد للمتلقي بأن العولمة ما هي إلا مجموعة من الجرائم الانسانية والإنحرافات الاجتماعية، التي لوثت القيم والأعراف العربية بسمومها، فأحداثها تدور في دائرة مغلقة بدأت بمرض الشواوي بالايدز، وانتهت بحريق رهام وديفيد، وهذه الأحداث بعيدة كل البعد عن بيئتنا العربية وثقافتنا الاسلامية التي لا تؤمن بالحب إلا داخل إطار الزواج الشرعي الذي أحلّه ديننا الحنيف، فالحب في زمن العولمة قائم على المصالح والمنافع المادية، لا السكينة والرحمة .

الهوامش:

---

*-انظر : الحميداني ، حميد ، النقد الروائي والايديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية الى سوسيولوجيا النص الروائي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1990 .

1- بلبيسي ، كاترين ، الممارسة النقدية ، ترجمة وتقديم فؤاد عبد المطلب ، دار التوحيدي ط1، 2008، ص83.

2- العالي ، عبد السلام ، تحرير ، محرر، سبيلا ، دفتر فلسفة ، دارتوبقال ، 1994، ص 61-62، وطرابيشي ، جورج ، الماركسية والايديولوجية ، بيروت ، دار الطليعة ، 1971م ، ص 887.

3- العالي ، عبد السلام ، ص 61-62 . وطرابيش ، جورج ، ص 887 .

4- انظر : لوسيان ، غولدمان ، مقدمات في سوسيولوجيا الرواية ، دمشق ، دار الحوار للنشر ، 1946م ، ص 347 ، ،364.

5- باختين ، ميخائيل ، الماركسية وفلسفة اللغة ، ترجمة ، محمد البكري ويميني العيد ، منشورات دارتوبقال ، الدار البيضاء ، 1986م ، ص 23 .

6- أبو ديب ، كمال ، الأدب والايديولوجيا ، مجلة فصول ، مجلد 5 ، 1985م ، ص 63.

7- شكري ، عزيز ماضي ، أنماط الرواية العربية ، عالم المعرفة ، عدد 355، 2008م ص14.

8- الفحماوي ، صبحي ، رواية " الحب في زمن العولمة " ، دار الهلال المصرية ، 2006م ،ص15 .

9- زيتوني ، لطيف ، معجم المصطلحات ، نقد الرواية ، دار النهار للنشر ، لبنان ، (د،ط) ، ص 125 ، 126 .

10- قطوس ، بسام ، سيمياء العنوان ، مطبعة البهجة ، عمان ، بدعم من وزارة الثقافة ، 2001م ،ص157 .

11- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص58.

12- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص81،82.

13- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص84.

14- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص103.

15- زيتوني ، لطيف ، معجم المصطلحات ، نقد الرواية ، ص15 .

16- الفحماوي ، صبحي ، الرواية ،ص7.

17- معتصم ، محمد ، البلاغة والإيديولوجيا وأنواع الخطاب ، قراءة في كتاب : " البلاغة والايديولوجية : دراسة في أنواع النثري عند ابن قتيبة " ، مجلة فصول ، المجلد (1/26) ، عدد 101 ، 2017م ،ص603.
18- المرجع السابق ، ص 604 .
19- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص208-209.
20- جابيس ، إدمون ، كتاب الهوامش ، ترجمة ، رجاء الطالبي ، منشورات الاختلاف ، منشورات دار الأمان ، بيروت – الجزائر – تونس ، 2015م ، ص19 .
21- بارت ، رولان ، درس السيميولوجيا ، ترجمة ،عبد السلام بن عبد العالي ، منشورات دار توبقال ، الدار البيضاء ، 1986م، ص12.
22- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص92.
23- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص21.
24- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص37.
25- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص51.
26- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص67.
27- الفحماوي ،صبحي ، الرواية ،ص217.